المحاضرة السادسة: (آثار شرقية) د. حسان عبد الحق

آثار العصر البابلي الحديث

أولاً– لمحة تاريخية

ذكرنا سابقا أن الدولة الآشورية سقطت في عام 612 ق.م على يد الميديين من خلال تحالفهم مع الكلدانيين الذين أسسوا دولتهم في عام 625 ق.م في بابل تحت سلطة القائد نابوبو لاصر (Nabopo Lassar). مهد سقوط الدولة الآشورية الحديثة لتقوية الدولة البابلية الحديثة (الكلدانية) و بسط سيطرتها على مناطق واسعة. و من أهم الأعمال التي قام بها الملك نابوبو لاصر ترميم الأبنية في المدن التي أهملها الآشوريون جنوبي بلاد الرافدين، و تقوية اقتصادها، و استعادة مدن شمل سوريا.

خلفه ابنه نبوخذ نصر الثاني الذي حكم من 604 غلى 562 ق.م. قام نبوخذ نصر بتأمين طرق التجارة التي كانت تعتمد عليها دولته، و التي كانت تشكل أحد أسباب ثرائها. و من خلال إحدى حملاته التي قام بها دخل القدس و أسر اليهود و أخذهم معه إلى بابل. و سار على نهج والده في قضية بناء مدن الجنوب. و يعود له الفضل في بناء مدينة بابل في هذا العصر، و التي تميزت بأبنيتها الضخمة.

بعد وفاة نبوخذ نصر الثاني تعاقب على حكم الدولة البابلية الحديثة عدة ملوك من أهمهم نابونيد الذي اتبع سياسة غريبة أدت إلى القضاء على دولته. فقد استبدل عبادة مردوخ إله بابل بعبادة سين إله القمر، ما ألب الناس عليه، فقاموا بالاتفاق مع قورش الفارسي لدخول بابل في 539 ق.م، فدخلها دون أية مقاومة تذكر، و تشكلت لدى السكان قناعة أن قورش جاء لتحريرهم.

ثانياً– مدينة بابل

بدأت أعمال التنقيب في مدينة بابل في عام 1899 من قبل بعثة ألمانية مؤلفة من منقبين و معمارين بقيادة عالم الآثار الألماني روبرت كولدوي. و امتلك المنقبون خبرة جيدة تساعدهم في تحديد الطبقات الأثرية. و كان العمل صعبا في بابل، ففي بداية الأمر كان كولدوي يعتقد أنه سينهي عمله بشكل كامل خلال خمس سنوات، لكنه لم ينجز إلا نصف هذا العمل حتى عام 1913. لم يستطع الألمان خلال الفترة الأولى من التنقيب، و لا في فترات أخرى، التنقيب تحت المدينة الحديثة بغية الوصول إلى آثار العصر البابلي القديم بسبب ارتفاع منسوب

المياه. في الفترة الثانية من عمل الألمان في هذه المدينة، تم تنقيب المناطق الجانبية منها و التي لم تنقب سابقا بهدف وضع مخطط لها.

تقع مدينة بابل على بعد 90 كم جنوبي بغداد، و تبلغ مساحتها 12 كم2. كان نهر الفرات يخترقها و يقسمها إلى قسمين شرقي و غربي، احتلت المدينة الداخلية القديمة القسم الشرقي الذي يقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات، و تميزت بشكلها الشبه مربع، و كانت تحوي الأبنية المهمة كالقصور و المعابد **(الشكل205)**. أما القسم الغربي من المدينة هو القسم الأحدث، يعود إلى عصر نبوخذ نصر الذي مد أسوار المدينة باتجاه الغرب، فأصبحت المدينة أكثر اتساعا، و تغير شكلها من شبه مربع إلى مستطيل. كان يربط بين قسمي المدينة جسر تبلغ أبعاده 123 x 10,50 م، محمول على خمسة أعمدة حجرية.

أحيطت المدينة بسورين داخلي وخارجي، بنيا من اللبن المجفف تحت أشعة الشمس، تفصل بينهما مسافة تقدر ب7,20 م. كان السور الداخلي أكثر سماكة (6,5 م) و أكثر ارتفاعا من السور الخارجي (السماكة 3,70 م). دُعم السوران بحصون تعتليها الأبراج كانت تستخدم لإطلاق النار أو السهام على الأعداء. حفر أمام السور الخارجي خندقا مائيا كبيرا، يتراوح عرضة بين 20 و 80 م، الهدف منه تأمين حماية أكبر للمدينة. بنيت أسوار المدينة هذه في عهد الملكين نابو بلاصر و نبوخذ نصر.

توزعت على أسوار المدينة تسع بوابات حملت أسماء أهم الآلهة في بلاد الرافدين)بوابة لوجال جيرا، بوابة عشتار، بوابة سين، بوابة مردوخ، بوابة زاببا، بوابة إنليل، بوابة أوراش، بوابة شماش، بوابة أدد(، و بني حولها غرف داخلية و خارجية مخصصة للحراس. و على الأغلب كانت هناك جسور تمتد من هذه البوابات إلى المنطقة المواجهة لها فوق الخندق المائي، تُمكن العربات و الأشخاص من الدخول إلى المدينة .

و تعتبر بوابة عشتار أجمل و أهم بوابات بابل، و التي تعود إلى عهد نبوخذ نصر الثاني **(الشكل206)**. بنيت هذه البوابة من الآجر المقولب المزجج، المطلي باللون الأزرق، و زخرفت من أسفلها إلى أعلاها برسوم نافرة صورت حيوانين رئيسين: الثور **(الشكل207)** و التنين **(الشكل208)**. يرمز الثور إلى الحياة و الخصوبة حسب التقاليد الرافدية، و إلى الإله أدد، بينما يرمز التنين إلى الإله مردوخ. إن تقنية استخدام الآجر المقولب في الزخرفة الناتئة تعود إلى العصر الكاشي، و كنا قد أشرنا سابقا إلى هذا النوع من الفن عندما تحدثنا عن معبد إنانا في أوروك الذي بناه الملك كارا إنداش.

اكتسبت بوابة عشتار أهميتها من شارع المواكب الذي كان يمتد منها إلى داخل المدينة، وسمي بهذا الاسم لأنه كان مخصصا للمواكب الاحتفالية التي كانت تقام في مهرجان السنة

الجديدة، وكانت تحمل فيها تماثيل الآلهة. يعود هذا الشارع هو الآخر إلى فترة حكم نبوخذ نصر، كان محاطا من جهتيه بجدارين سميكين (7 م)، زينا برسومات لصفوف من الأسود (**الشكل 209**)، وكان مبلطا برقائق من الحجر الكلسي، تبلغ مساحة كل منها م2. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأسد كان يرمز إلى الربة عشتار، وكان حارسا مميزا للأبنية، فهو يحميها من خطر الأرواح الشريرة. يمتد هذا الشارع من بوابة عشتار باتجاه الجنوب مارا أمام الجدار الشرقي لقصر نبوخذ نصر، ثم يعبر القناة التي تعرف باسم (ليبليكالا) متجها نحو الزقورة، ثم يسير نحو الغرب حيث يوجد معبد مردوخ، و من هنا ينعطف باتجاه الفرات حيث يجتاز الجسر المشيد عليه متوجها إلى القسم الغربي من المدينة.

بقي أن نشير إلى أهم الأبنية التي شيدت في بابل. في الجهة الشمالية الغربية من المدينة، في موقع يطل على نهر الفرات قريب من بوابة عشتار شُيد قصر نبوخذ نصر الثاني الذي أطلق عليه اسم القلعة الجنوبية. لقد استخدم هذا القصر كبيت للمك و مركز للإدارة و الاستقبال. بني وفق مخطط مستطيل الشكل (52 x 17م)، و كان يتألف من خمس ساحات ذات أشكال مربعة و مستطيلة، تحاط من جهاتها الأربع بعد كبير من الغرف تختلف عن بعضها البعض بالشكل و الحجم. لم يبن القصر في وقت واحد، فالساحة الغربية على سبيل المثال بنيت في عهد نابوبو لصر، لكنها استخدمت لاحقا من قبل ابنه نبوخذ نصر. و بالنسبة للساحات الأربع الأخرى (الرئيسية و الوسطى و الشرقية و الملحقية) فقد بنيت في عصر نبوخذ نصر.

و من أهم غرف القصر صالة العرش التي تقع جنوبي الساحة الرئيسية، و التي تتميز بحجمها الكبير و بشكلها المستطيل، حيث تبلغ أبعادها 52 x 17 م. تتصل مباشرة بالساحة الرئيسية عبر ثلاثة أبواب تقع على الجدار الفاصل بينهما. في منتصف الجدار الخلفي للصالة يوجد حنية صغيرة، ربما كانت مخصصة لكرسي الملك. واللافت للانتباه أنها تقع مقابل الباب الأوسط للصالة، فربما كان الهدف من ذلك تمكن الملك من استقبال ضيوفه مباشرة عندما يدخلون من هذا الباب. تتشابه بعض الترتيبات هنا مع بعض الترتيبات في القصور الآشورية، فعلى سبيل المثال ربط صالة العرش بالساحة المركزية عبر ثلاثة أبواب تعد سمة معمارية آشورية لاحظناها في القصر F في خورسباد. لكن هناك اختلافات، ومن أهمها عدم وجود صالة موازية لصالة العرش تماثلها بالشكل والحجم، ففي أغلب القصور الآشورية التي درسناها سابقا، كان قسم الاستقبال يتألف من صالتين مستطيلتين متوازيتين (صالة العرش وصالة أخرى). الاختلاف الآخر يتمثل في موقع العرش، ففي كل النماذج الآشورية كان العرش يقع أمام أحد الضلعين الصغيرين لصالة العرش، بينما هنا يتموضع أمام الجدار الطويل الخلفي. زخرفت واجهة صالة العرش التي تواجه الباحة الرئيسية برسومات من القرميد الملون والمزجج التي كانت ترمز لأشياء كثيرة ترتبط بالتقاليد الرافدية. تتألف الزخارف من إفريزين رئيسين، في الإفريز

العلوي تُظهر أربعة أشجار نخيل ترمز للحياة، أما الإفريز السفلي فيجسد عدة أسود تسير وراء بعضها. ترمز الأسود هنا إلى الموت وعالم الأموات (العالم السفلي)، وربما ترمز إلى الربة عشتار.

وتضم المدينة أبنية مدنية أخرى كالقلعة الحصينة والقصر الصغير اللذين يقعان في منطقة خارج الأسوار مقابل قصر نبوخذ نصر. ويضاف إلى هذه الأبنية مبان دينية من أهمها الزقورة التي ذكرتها التوراة تحت مسمى برج بابل. ومعبد مردوخ الواقع إلى الجنوب منها والذي كان مكرسا لعبادة مردوخ إله بابل الرئيسي.

ثالثا–النحت في العصر البابلي الحديث

شاع في هذا العصر النحت البارز، فقد تم العثور على عدد من المسلات التي تمثل هذا الفن. إحدى هذه المسلات تعود إلى فترة الملك نابو إبلا إيدنا (القرن التاسع ق.م)، التي سبقت فترة حكم نابو بلاصر. وأقيمت هذه المسلة احتفالاً بصيانة وترميم معبد شماش في سيبار. وتتألف من قسمين علوي وسفلي، يفصل بينهما شريط مزخرف بخطوط متموجة. وتجسد في حقلها العلوي الإله شماش تحت مظلة، جالساً على عرشه المزين بزوج من المخلوقات الأسطورية التي تتكون من قسمين أحدهما إنساني، والآخر حيواني على هيئة ثور. وتتوضع أمامه طاولة صغيرة، يرتكز عليها قرص دائري، نُقش عليه نجمة رباعية يخرج منها أربعة شعاعات. وأمام الطاولة يظهر ثلاثة من المتعبدين يتقدمون نحوه.

وهناك مسلة أخرى تعود إلى عهد الملك مردوخ بلادان (721–711 ق.م)، تصميمها يشبه تصميم حجر الحدود (الكودورو). وتحتوي في جزئها العلوي مشهداً يضم رموز الآلهة البابلية، ويلي هذا المشهد مشهد آخر يجسد مردوخ بلادان مع أحد حلفائه في وضعية الوقوف، وكلاهما نحتا نحتاً بارزاً مجسماً، وبسطوح نفذت بدقة عالية.

ولدينا مسلة ثالثة تؤرخ بعهد الملك نابونيد آخر ملك بابلي (555–539 ق.م)، وهي ذات قمة منحية، تماثل قمة المسلة السابقة، غير أنها تختلف عن المسلة السابقة في كونها تتكون من مشهد واحد، يُرى فيه نابونيد واقفاً أمام رموز بعض الآلهة البابلية، ماسكاً بيده العصا الملكية، مماثلاً في هذه السمة مردوخ بلادان الذي كان يمسك العصا الملكية. ويتشابه الإثنان أيضاً بغطاء، وبالأسلوب المتبع في تصوير الوجه واللحية وشعر الرأس الذي يتدلى من الخلف على الرقبة، وبحركة اليدين.